المؤتمر السادس لمنظمة المرأة العربية

"دور النساء في الدول العربية ومسارات الإصلاح والتغيير"

القاهرة: 13 - 14 ديسمبر 2016

ورقة بحثية

المرأة في مناطق العنف والصراع
تمكين النساء السوريات المهجرات إلى لبنان
تجربة عامل نموذجاً

الدكتور/ مصطفى حجازي

أستاذ علم النفس

الجمهورية اللبنانية

المؤتمر السادس لمنظمة المرأة العربية

"دور النساء في الدول العربية ومسارات الإصلاح والتغيير"

القاهرة: 13 - 14 ديسمبر 2016

ورقة بحثية

المرأة في مناطق العنف والصراع
تمكين النساء السوريات المهجرات إلى لبنان
تجربة عامل نموذجًا

الدكتور/ مصطفى حجازي

أستاذ علم النفس

الجمهورية اللبنانية

بالاشتراك مع:

الدكتور/ كامل مهنا

الأستاذة/ زكية قرنفل

المحتويات

مقدمة 3

القسم الأول: الإطار النظري والاعتبارات المنهجية 5

القسم الثاني: تجربة "عامل" وفلسفتها في العمل التنموي المشارك مع السوريات مؤسسة عامل 17

الخلاصات..... 31

المراجع 33

مقدمة

المرأة والطفل هما أكبر الضحايا في مناطق العنف والنزاع. ذلك أمر معروف ومثبت بالشواهد العينية، وفي التقارير الدولية. وأكثر ما تصاب المرأة والطفل في مناطق الصراعات الدينية والعرقية والأثنية، حيث يفقد العنف طابعه المقنن واستهدافاته المحددة بين القوى العسكرية النظامية المتحاربة أساساً.

في الصراعات الأهلية الدينية والعرقية يتفلت العنف من كل قيوده العسكرية النظامية متخذاً طابع المجازر والإبادة المتبادلة بدون تمييز ما بين المقاتلين وحاملي السلاح وبين المدنيين العزل. بل إن هؤلاء المدنيين يصبحون هم المستهدفين في عمليات الإبادة والتطهير والفرز السكاني. ومن هنا تكون المرأة والطفل الأقل تحصناً والأقل قدرة على الحماية الذاتية، هم الضحايا المباشرون الذين يدفعون من كيانهم وحياتهم الثمن الأكثر فداحة، إضافة إلى فقدان مجالهم الحيوي وفقدان المعيل.

وضع المرأة السورية قبل الحرب وأثناءها يجمع كلا النوعين من الأضرار ويراكم آثارهما الكارثية. فالحرب في سوريا التي اعتقدت كل الأطراف المتصارعة، سواء النظام الحاكم أو المعارضة، أنها مؤقتة، وسرعان ما ستحسم، إذ بها تمتد وتتفشى وتدخل في الأفق المسدود ومفتوح النهاية، والذي يتصعد في درجة عنفه وتنوع ألوانه وتكاثر أطرافه وامتداد ساحاته، كي يدخل في عملية تدمير الكيان السوري ذاته في مدنه وقراه وبناه التحتية وموارده الأولية والبشرية وتاريخه وتراثه فائق الغنى. لم يعد هناك أي اعتبار للإنسان ذاته ولا حرمة لكيانه أو اهتمام بمصالحه ومجاله الحيوي. تحول البشر إما إلى أدوات ووقود للعنف، أو إلى مجرد عبء على السلطات ومعوق لمخططاتها. ولذلك فلا هذه السلطات وقواها الأمنية والعسكرية تقيم وزناً للبشر، ولا جحافل التنظيمات المسلحة الآتية من أربع رياح الأرض وذات المخططات والأهداف المتناقضة فيما بينها. نقطة اللقاء الوحيدة بينها، هي والقوى النظامية تتمثل في الإبادة المتبادلة والقضاء على البشر والحجر طمعاً بنصر هو إلى الخيال أقرب منه إلى الواقع.

أصبح الإنسان السوري المهدور والمقهور (حجازي، 2005) لعبة الأمم التي تدير الفئات المتحاربة خدمة لمصالحها. لم يسبق في أي حرب في التاريخ الحديث أن تم هدر الإنسان على هذا الشكل، حيث التهجير الداخلي والتهجير إلى الدول المجاورة، وموجات المهاجرين إلى الغرب أكثر من ثلثي السكان. وكان نصيب لبنان منها هو الأكبر حيث نزح إليه ما يزيد على مليون ونصف مليون سوري جلهم من النساء والأطفال. ويشكل هذا الرقم نصف عدد سكان لبنان المقيمين.

كل الأرقام والتقارير الرسمية لا تعكس إلا جوانب بسيطة ومحدودة من حجم الكارثة الكيانية التي حلت وتحل بالمرأة السورية في الداخل كما في أماكن التهجير.

كان للمرأة دور فعال في فترة التظاهر والوقفات السلمية المطالبة بالإصلاح والعدالة والحرية والكرامة الإنسانية قبل أن يحولها النظام من خلال ردود فعله الأمنية مفرطة العنف إلى نزاعات مسلحة، ليس لها أفق نهاية في المستقبل المنظور. قامت المرأة بمهام المسعفة والطبيبة والإعلامية والقائدة. ودفعت أثماناً باهظة على صعيد الاعتقال والتعذيب والإخفاء والاستشهاد لا تعكس الإحصاءات الرسمية إلا جزءاً يسيراً من حجمها.

وفاقمت المنظمات التكفيرية من هذه الاعتداءات على المرأة وفنونها غير المسبوقة من سبي واستعباد وبيع في أسواق النخاسة وأدوات المتعة الجنسية للميليشيات التكفيرية، إضافة إلى ابتداع فنون تقييد حريتها، وهدر إنسانيتها، ناهيك عن الإبادة الجماعية بواسطة الغازات السامة من قبل النظام والميليشيات التكفيرية على حد سواء.

إنها سجل كارثي فريد في مطلع الألفية الثالثة لا يمكن لأي تقارير رسمية أو دولية أو سواها أن تعكس مدى ما وصلت إليه الاستهانة بإنسانية الإنسان والمرأة على رأسها.

غاية هذه الورقة أكثر تواضعاً ومحدودية بما لا يقاس، حيث تركز على أوضاع المرأة السورية المهجرة إلى لبنان، مبرزة تجليات انتفاضة طاقات الحياة لديها ونموذج تجربة عامل معها، والتي تتجاوز عمليات الإغاثة والرعاية الصحية وصولاً إلى التمكين وإطلاق المبادرات الذاتية، في عملية ظفر الحياة على الموت (حجازي، 2012).

القسم الأول: الإطار النظري والاعتبارات المنهجية

التهجير

يشكل التهجير القسري وتحت تهديد العنف المسلح، كما هو شأن السوريين رجالًا ونساءً وأطفالًا، صدمة كيانية فعلية. إنه أكبر وأخطر بما لا يقاس من مجرد الهروب من مناطق القتال، وما يحمله من أخطار جسدية وحياتية إلى مناطق أكثر أمنًا، كما يبدو من ظواهر الأمور.

التهجير العنفي هو اقتلاع من الجذور وفقدان المجال الحيوي الطبيعي الذي يكون فيه الإنسان سيد ساحته التي تشكل جزءًا لا يتجزأ من كيانه ذاته (البيولوجي والنفسي والاجتماعي). كل الكائنات الحية لها مجال حيوي تتآلف معه فيشكل مصادر عيشها وشعورها بالقوة والطمأنينة. ولذلك نرى الحيوان يقاتل بضراوة للحفاظ على مجاله الحيوي هذا حتى الموت. وهو إن هزم وأخرج من مجاله هذا فإن مصيره الموت المحتم حيث يصبح معرضًا لكل الأخطار وعلى رأسها دفاع الكائنات الأخرى عن مجالها الحيوي إذا هو دخله. الحيوان الذي أخرج من مجاله الحيوي تضعف قوته على المجابهة، وتتعطل قوى القتال لديه.

كذلك هو شأن الإنسان إذا هجر قسراً فإنه يتحول إلى وضعية الغريب، وهي وضعية الضعيف العاجز عن المجابهة. ومن هنا مشاعر الانكسار النفسي والوجودي التي تنتابه. من هنا فإن الدفاع عن الأرض والاستشهاد في سبيل الحفاظ عليها ليست مسألة معنوية أو وطنية، وإنما هي تضرب جذورها عميقاً في الكيان البيولوجي الحيوي ذاته. الوطنية والانتماء ليست مجرد أمور معنوية فوقية تشكل مصدر الفخار الذاتي بل هي في الأصل ذات جذور بيولوجية حيوية تضفى عليها من ثم كل مشاعر الفخار والاعتزاز وقيم التمسك بالأرض. تراب الوطن الغالي ليس مجرد شعارات يتم التغني بها. والحنين إلى الوطن ومرابع الصبا ليست مجرد مشاعر متعلمة. من هنا الكلام عن صدمة التهجير الاقتلاعي. دلالة الإنسان ذاته وكينونته تمس في الصميم. إنها فقدان نظام التآلف مع الأرض والناس والمجال الحيوي الذي يشعر الإنسان بالطمأنينة والانتماء. إنها منعة تواجد الإنسان على أرضه ومع ناسه.

الاقتلاع من الأرض والمجال الحيوي والانتماءات يلقي بالإنسان في الغربة. والغربة هي خطر المجهول في الأساس. وخطر المجهول هو من أبرز أسباب القلق الذي يعصف بكيان الإنسان. كل ترتيبات الوجود والتكيف مع قضاياه أياً كانت مصاعبها تتضعضع. وهو ما ينعكس على صعيد المعاش النفسي بمثابة فقدان الجدارة. يهرب المهجر من أخطار العنف الحربي المهدد للوجود فيقع في أخطار الغربة وما تحمله

من انكشاف وقلق المجهول وفقدان الحماية الذي يوفره نظام التعاضد والتساند في المجال الحيوي الأصلي؛ حيث يشعر الإنسان أنه مع ناسه وعلى أرضه. من هنا فرح العودة بعد طول غياب وذلك الشعور العميق بالألفة والطمأنينة والمنعة بعد العودة.

التهجير السوري الجماعي إلى دول الجوار هو صدمة ترقى إلى مستوى الكارثة الوجودية. ونصيب لبنان منها هو الأكبر إذ يبلغ عدد المهاجرين المسجلين رسمياً بحدود مليون ونصف مليون لاجئ منهم ما لا يقل عن 600 ألف امرأة. ويقدر العدد غير الرسمي بنصف مليون إضافي منتشرين بشكل عشوائي على الأرض اللبنانية، إضافة إلى 1300 مخيم معترف بها. إنهم الغرباء المستضعفون؛ هربوا من أخطار عنف الحرب وتصفياتها غير المسبوقة، سواء من قبل قوات النظام المسلحة أو من انتشار كل أشكال التنظيمات المسلحة التي اجتاحت مناطق هؤلاء المهجرين. فقد المهجرون جنى العمر وطمأنينة العيش والتكيف مع بيئتهم. هربوا من شكوك وملاحقات أجهزة النظام الأمنية بأنهم معادون للنظام أو من ملاحقة التنظيمات المسلحة التي لا تقيم أي اعتبار للإنسان وحرمته وكرامته، حيث يتهمون بالولاء للنظام فيكفرون وتسفك دماؤهم وتستعبد نساؤهم.

هربوا من الأخطار الأمنية فوقعوا في خطر الشك بأنهم يأوون إرهابيين بينهم من قبل البلد المضيف وناسه. كانوا عبئاً مادياً على النظام الرسمي فأصبحوا عبئاً مادياً على البلد المضيف، وعلى وكالات الغوث الدولية التي تشكل مساعداتها فضيحة فعلية نظراً لمحدوديتها شبه الرمزية حيث يصرف جلها على النفقات الإدارية لهذه الوكالات.

يقع العبء الأكبر لتدبر أمور العيش العاجلة على المرأة السورية المهجرة، سواء في المخيمات أو في أوضاع السكن العشوائي تحت الأشجار في القرى. السكن في المخيمات لم يكفل لهن ولذويهن الحماية من غوائل الطبيعة. فالخيم غير محمية من الأمطار والسيول والعواصف، إضافة إلى انعدام وسائل التدفئة في برد الشتاء القارس. وجد المهجرون أنفسهم فجأة في حالة انكشاف وانعدام وسائل العيش. وأمسوا بين عشية وضحاها تحت خط الفقر الذي يلقى بالإنسان في موقع تحت خط البشر: تحت خط الفقر= تحت خط البشر. وهكذا أصبحوا عرضة للاستغلال المادي. يتم تشغيل النساء والأطفال في مختلف الأعمال اليدوية وخصوصاً الزراعية منها بأجور بخسة تكاد تكون رمزية فعلاً وبالكاد تكفي لتوفير الخبز اليومي.

وضاعف من هذا التدهور الإنساني تشتت العديد من الجماعات المحلية المتماسكة في موطنها الأصلي حيث دخلت فيما يسمى بحالة الغفل الاجتماعي Social Anomie الذي يؤدي إلى تكوين خليط سكاني يفتقر إلى الضوابط الاجتماعية ونظم الحماية والتساند. ولّدت حالة الغفل هذه ظواهر بيعالفتيات الصغيرات جنسياً تحت غطاء عقود زواج موهوم، من ضمن ظواهر اضطراب عديدة أخرى.

ولابد من القول هنا بأن الحكومة اللبنانية تبذل قصارى جهدها، وما هو فوق طاقتها لتوفير مقومات الصحة والتعليم لطوفان المهجرين هذا، ولا تنال من المساعدات الدولية سوى الوعود. هم الحكومات الغربية ينحصر في الإبقاء على هؤلاء المهجرين في لبنان وحماية بلدانها من هجرتهم إليها.

المرأة السورية المهجرة من الريف هي مع ذلك كله بطلة تدبر أمور الحد الأدنى من مقومات العيش في وضعية التهجير العشوائي منه أو في المخيمات. إنها تستنفر طاقاتها الحية فيما يعرف برد الفعل الحرج حيث تعبئ الطاقات الحيوية وتبتدع كل وسائل تدبر أمور العيش بشكل غير مسبوق.

إننا هنا بصدد المرونة الاستيعابية (Resilience Yates and Masten, 2004). وهو التعبير الذي توافق عليه العلماء في وصف قدرة بعض الجماعات المعرضة لأخطار داهمة (حروب، كوارث، مجازر، تهجير) على الخروج بحد معقول من الأضرار ومتابعة النمو. يعني مصطلح Resilience بالإنجليزية امتصاص الضغوط والانحناء لها والعودة من ثم إلى الوضع الطبيعي السابق أو إلى حالة تكيف جديدة تشكل أنماطًا أخرى من القدرة على البقاء، وتطوير نوع من المناعة النفسية في مواجهة الشدائد، بدلاً من حالات الانهيار والوقوع في المرض. ويتضمن مصطلح المرونة الاستيعابية إلي اعتمدناه في مقابل المصطلح الانجليزي بعدين: التعرض للشدائد والمحن وفقدان المجال الحيوي الطبيعي، كما هو الحال في التهجير القائم، من ناحية، واستيعاب الصدمات الناتجة عن هذه الشدائد وبناء تكيف استيعابي بديل من الناحية الثانية. وذلك من خلال إبداء كفاءة حياتية واكتساب قدرة أعلى على المجابهة والتمتع بصلابة أكبر في وجه المحنة، ووصولاً إلى إبداء القدرة على إدارة دفة الحياة في الظروف المستجدة.

ألوان الانهيار الوجودي الناجمة عن التهجير ظلت رغم كل ما يروى محدودة. وظلت طاقات الحياة هي الغالبة، وظلت المرأة السورية المهجرة هي بطلة التدبير وابتداع أساليب تعامل فاعلة مع الشدائد المادية والنفسية.

هذه الحالة ليست فريدة في تاريخ أمتنا المعاصر، ولنا في الصمود الفلسطيني واللبناني في وجه العدوان والتدمير الاسرائيلي الممنهج مثال بليغ، كذلك هو حال كل من العراق وسوريا وسواهما. فالعجز المتعلم والمفروض ليس قدرًا محتوماً. ومعطيات علم النفس المرضي التي تربط ما بين الشدائد والمحن والأمراض النفسية وسوء التكيف واضطراب الشدة التالية للصدمات PTSD* ليس أمرًا قاطعًا ولا هي قدرًا

* اضطراب الشدة التالي للصدماتPost-Traumatic Stress Order. إنه الاضطراب النفسي الذي يولده تعرض الإنسان إلى محنة أو صدمة تتجاوز قدرته العادية على الاستيعاب. ويتجلى في العديد من الأعراض النفسية والسلوكية من مثل القلق وحالة الاستنفار تجاه أبسط المثيرات التي تفسر على أنها مؤشر خطورة، والعصبية الشديدة والأرق، والشك والارتياب بالمثيرات البيئية وحالة الاكتئاب وفقدان الرغبة في العمل وتدهور الحياة العاطفية والجنسية، ويجمعها كلها فساد العيش.

محتومًا. هناك طاقات الحياة التي تشكل مخزوناً استراتيجياً يمكن تحريكها واطلاقها في مواجهة المحن. طاقات الحياة لا تنطفئ إذا دفعت إلى الكمون. إنها قابلة لأن تعبأ على الدوام ضمن ظروف ملائمة. أسوار القهر والهدر يمكن أن تحطم في صحوة لطاقات الحياة فإذا بها تسترد كامل زخمها وحيويتها وفاعليتها. ذلك هو الدرس الذي تعلمنا إياه تجارب الشعوب المناضلة من أجل حقها في الحياة. الحياة بطبيعتها تعالج إصاباتها، وتعوض أضرارها وتجدد طاقاتها. والمرأة السورية المهجرة هي بطلة بهذا المعنى تحديداً فيما تدبر من وسائل صمود. ذلك هو الدرس الذي تعطيه لمنظمات المجتمع المدني العاملة مع المهجرين تحديداً (Larson and others, 2003).

هذا الكلام ليس شعراً أو وجدانيات بل هو في صلب العلم.

لقد اكتشفت الأبحاث البيولوجية النفسية الحديثة أن هناك ثلاثة أنظمة حيوية عصبية مستقلة عن بعضها البعض توجه السلوك، بحيث أن اشتغال أحدها لا يلغي وجود الآخر الذي يظل في حالة كمون(Carr, 2004). أولها هو الجهاز الميسر للسلوك والذي يرتبط بتفعيل طاقات الحياة والنماء والتوسع والتمدد والإقدام والمواجهة والمغامرة. إنه الجهاز الذي يتيح النماء والسيطرة على البيئة، كما يتيح البناء والتواصل والترابط، وهو الأقرب إلى نزوة الحياة التي قال بها فرويد. ينشط هذا النظام من خلال نشاط الموصل العصبي المعروف باسم "دوبامين" المسئول عن حالة الحماس والشعور بالتوسع والقدرة على الإقدام، مما يتجلى في لحظات الانتصار وما يرافقه من حماس وشعور بالنشوة. ويقابله الجهاز الذي يصد السلوك ويكبح المواجهة والمجابهة، ويفرض الهروب أو التجنب والاستكانة بمثابة آلية دفاعية حيوية في مواجهة الأخطار المهددة للحياة، والتي تتجاوز القدرة على التعامل معها. إنه نظام الحماية من خلال الرضوخ وإيثار السلامة. وهو ينشط من خلال الموصل العصبي المعروف باسم "نور أبينفرين" الذي يولد حالة الخوف والقلق حين ينشط. وأما الجهاز العصبي الحيوي الثالث فهو النظام الذي يعقلن السلوك ويوازنه من خلال حسن تقدير معادلة القوى الذاتية في مقابل التهديدات والأخطار. يحول دون الانخراط في مغامرات مؤذية أو مهلكة، في الآن عينه الذي لا يدع الكائن الحي يستسلم للخوف وسلوكيات التجنب وإيثار السلامة. ويقوم بتنشيطه الموصل العصبي المعروف باسم "السيروتونين" الذي يدفع باتجاه العقلانية والاعتدال.

اعتبارات منهجية

أولاً: شرائح النساء وخصوصياتها

جرت العادة على الكلام عن المرأة، أو الشباب، أو الأسرة بشكل إجمالي، وكأن ما ينطبق على فئة منها ينطبق هو ذاته على بقية الفئات. نحن هنا بصدد التباس معرفي في النظرة والمقاربة. ذلك أن الأسر في مجتمع ما لا تتساوى في بنائها وديناميات وخصائصها واحتياجاتها. بل نحن بصدد عدة شرائح من هذه الأسر ولكل منها بنيتها وديناميات وخصائصها وظروفها. وما ينطبق على إحداها، لا ينطبق هو ذاته على ما عداها. وكذلك هو حال كل من الشباب والمرأة. فهناك عدة شرائح من الشباب، وعدة شرائح من النساء يتعين مقاربة كل منها بشكل متفرد انطلاقاً من خصائصها وظروفها وأطرها الحياتية واحتياجاتها.

فإذا أتينا إلى قضية المرأة السورية المهجرة سرعان ما سيتضح أننا بصدد عدة شرائح لابد من مقاربة كل منها، دراسة وتدخلاً، بشكل مغاير كلياً عن سواها من الشرائح. يمكن إجمالاً التمييز ما بين أربع شرائح كالتالي: شريحة النخب النسائية، وشريحة نساء أسر النفوذ السياسي والمالي (النساء المحظيات)، وشريحة نساء الفئات الشعبية الكادحة الحضرية والريفية، وأخيراً شريحة نساء الأسر المهمشة والمتصدعة.

1. نساء أسر النفوذ السياسي والمالي: باعتبار أن هناك دوماً تحالف السياسة ورأس المال، فهن المحظيات قبل التهجير وأثنائه وبعده، وهن أبعد ما يكن عن التعرض لأي أخطار حربية أو أمنية. ذلك أن أسرهن هي المسئولة عن الأزمات السياسية والأمنية نظراً لاستئثارها بالسلطة والمال، وهي ذاتها الأسر التي تولد الأزمات الوطنية وتستفيد من نتائجها. نساء هذه الشريحة محميات بالطبع من أي أخطار أمنية. وإذ حدث أن اضطررن للهجرة (الابتعاد المؤقت بالأحرى عن مواطن الصراع والأخطار) فإنهن يغادرن البلد إلى بلاد مجاورة أو غربية في نوع من سياحة الترف الفعلي: العيش في فلل وفنادق درجة أولى؛ وارتياد الأماكن المترفة، والعيش حياة إفراط في البذخ، والعودة من ثم إلى البلد بعد هدوء الأوضاع لمتابعة حياتهن السابقة المترفة. ليس لدى هذه الفئة من النساء أي هموم أو معاناة من قلق على الحاضر أو المصير، طالما أن أسرهن هي المتسببة بالاضطرابات الأمنية وهي المستفيدة منها.

وينضم إلى نساء هذه الأسر فئة البرجوازية المالية التجارية. قد يغادرن إذا تعرضت مواطن حياتهن لأخطار الصراعات الأمنية ويعشن بدورهن حياة مريحة خارج البلد: استئجار مساكن تضم كل وسائل الراحة، وارتياد أماكن الحياة الاجتماعية من مطاعم وملاهٍ وسواها بانتظار العودة بعد استتباب الأوضاع الأمنية. هنا أيضًا ليس هناك من متاعب عيش أو هموم مستقبل جادة. إنهن محميات من أخطار المجهول.

2. شريحة نساء النخب:وتشكل فئة القيادات النسائية في المجالات العلمية والفكرية والجامعية والاجتماعية. إنهن ذوات الانتماء الوطني الراسخ والمناضلات السياسيات والاجتماعيات دفاعاً ليس عن حقوق المرأة فقط وإنما عن إرساء العدالة الاجتماعية ومحاربة الاستغلال الاقتصادي والاضطهاد السياسي. إنهن رائدات التنوير والتغيير وقيادات التوعية الاجتماعية والانماء المتوازن والمستدام. إنهن بطلات المجابهة والمواجهة. وقد يدفعن الثمن غالياً أحياناً حين الصدام مع سلطات الاستبداد والاستغلال.

تتمتع هذه الشريحة بما يكفي من وسائل القوة الذاتية والحصانة، مما يجعلها قادرة على التعامل مع الأخطار الأمنية. ولو أن بعضهن يدفع الثمن غالبًا أحيانًا. إلا أنهن يتمتعن بما يكفي من وسائل الاقتدار لتحصين أنفسهن وأسرهن ضد أخطار الحرب، والقدرة على التحرك في ظروف مقبولة. إنهن على كل حال رائدات التغيير والبناء في السلم والحرب على السواء. تشكل فئة النخبة هذه قيادات العمل السياسي والاجتماعي الوطني الذي يطرحه مؤتمر المرأة هذا.

3. وهناك شريحة نساء الفئات الشعبية الحضرية والريفية الكادحة: في أوقات السلم والعاملة على بناء حياة كريمة وأسر متماسكة وبذل الجهود الكبيرة في تربية الأبناء. إنهن بطلات بناء حياة معافاة من خلال الجهد الجهيد في فترات السلم. وهن بدورهن بطلات الصمود وتدبر أمور البقاء في التهجير.

هذه الشريحة معرضة لأخطار الحرب وصراعاتها سواء من قبل أجهزة أمن السلطة أو من قبل يأجوج ومأجوج المنظمات التكفيرية على اختلافها. إنها الشريحة التي تتعرض للتهجير وخسارة جنى العمر في موطنها الأصلي الريفي أو الحضري. إلا أنها تتمتع بالمرونة الاستيعابية، من بينهن تبرز قيادات محلية في مخيمات التهجير التي تبتدع الكثير من وسائل البقاء والحفاظ على الذات في وجه أخطار الانهيار. وبالتالي فهي الشريحة الأكثر استعدادًا للتجاوب مع جهود التمكين التي تقوم بها منظمات العمل المدني مع المهجرين (من مثل عامل). وهي المعنية ببناء المستقبل بعد العودة إلى الديار. ليس على الصعيد السياسي العام فقط، وإنما على صعيد مجتمعاتها المحلية. إنها الشريحة الأكثر استعدادًا للشراكة في برامج التنمية الموجهة إليها وأسرها رجالًا ونساءً.

4. أما نساء الشريحة المهمشة ما دون الكادحة:إنها الأقل مناعة والأكثر تعرضًا للأخطار الأمنية. إنها تلك التي تقدم الثمن الأكبر في تلقي الخسائر. أبناؤها هم شباب الظل في السلم ووقود العنف في الحرب. الأسر ذات تكوين ركيك إن لم يكن متصدعًا في الأصل. إنها تفتقر إلى إدارة حياتها سلمًا وتهجيرًا، إذ تترك ذاتها للأقدار والعيش يومًا بيوم بدون أدنى تخطيط حياتي. إنها تصدر أكبر نسبة من الزيجات المبكرة جدًا والانسياق إلى الحتمية البيولوجية في الإنجاب رغم العيش بدون توافر أدنى ظروف

الحياة لرعاية الأبناء. أنها تستسلم للعجز المتعلم Learned Helplessness* وللأقدار وتقع في الفعل الاجتماعي وكل ما يجره من مشكلات سوء التكيف. تترك أبناءها خارج المدرسة، إذ تدفع بهم إلى الشارع للاستجداء بمختلف صيغه (استجداء مباشر عند مفارق الطرق أو بيع سلع تافهة، أو مسح أحذية إلخ...)، أو القيام بأعمال ارتزاق كيفما دار الحال. هذه الشريحة هي الأقل تجاوباً مع تدخلات منظمات المجتمع المدني للنهوض بأوضاعها أو تمكينها. كل ما تطلبه هو الجري وراء الحصول على مساعدات عينية من قبل منظمات الإغاثة أو الإحسان. إنها باختصار الشريحة الأكثر هشاشة وتعرضاً للأخطار على اختلافها. وهي تحتاج إلى برامج إعادة تأهيل كلي: صحيًّا، وتعليميًا، وإدارة حياة، وتمهينًا.

وهي كذلك مصدر الشكوى من الأوساط المضيفة. فهذه الشريحة من النساء والأسر المهجرة هي التي تنتج العدد الأكبر من مشكلات سوء التكيف، المشكو منها: من قبيل الممارسات غير المشروعة (مخدات، سرقة الخ...) بين الشباب، وممارسة الدعارة بين النساء. كما أنها تضم أكبر نسبة من الفتيات اللواتي يتعرضن لشتى أنواع الاستغلال الجنسي، حيث يغرر بهن من قبل بعض العصابات التي تعد هؤلاء الفتيات بأنها ستوظفهن في الأعمال الخدمية في المنازل أو المحال العامة لقاء أجر مغرٍ. وينتهي الأمر بهن بعد التهديد إلى الوقوع ضحايا الاستغلال الجنسي. ومنها حالاًت الزواج الوهمي أو الدعارة.كما أن الآباء في هذه الأسر يقومون هم بأنفسهم ببيع بناتهن القصر في عقود زواج مؤقتة ويقبضون الثمن.

ثانيًا: التمكين

هو التعبير المعتمد مقابل مصطلح Empowerment الانجليزي المشتق من فعل Empower ويعني إعطاء شخص ما السلطة أو الصلاحية للقيام بمسئوليات معنية من خلال امتلاك وسائل القوة والقدرة على التصرف. يشيع استخدام مصطلح التمكين في الكلام عن الشرائح المهمشة أو المحرومة لإعطائها حقوقها والمشاركة في القرار والفعل المتعلق بإدارة شئونها. ولقد طبق خصوصاً في مجال المرأة وما يلحق بها من غبن واستغلال وتهميش عن مواقع القوة والقرار، والمطالبة بالمساواة في الحقوق والفرص والشراكة (حجازي، 2012).

* العجز المتعلم Learned Helplessness: وضع عالم النفس الأمريكي سليجمان هذا التعبير لتوصيف حالة الاستسلام للعجز التي يقع فيها الإنسان بعد عدة محاولات من المقاومة والمجابهة التي تنتهي بالفشل فيستسلم لليأس وللأقدار بدون الإحساس بالقدرة على عمل شيء. ولقد توصل إلى وضع هذا المصطلح بعد إجراء العديد من تجارب التعلم على الكلاب حيث وضع بعضها في حالة انعدام القدرة على التصرف لتجنب مثيرات مؤلمة. وحين أتيح للكلاب فرصة الإفلات من هذه المثيرات لاحظ أنها تظل خانعة ومستسلمة ولا تبدي أي مبادرة للخلاص، فكأنها استسلمت إلى نوع من القدر المحتوم.

تركز استخدامه في البدء على الصعيد الاقتصادي وصولاً إلى عملية النهوض بالمرأة ومستواها المعيشي والحياتي وتنميتها. وتوسع المصطلح من ثم من التمكين الاقتصادي إلى التنمية الإنسانية الشاملة للنساء: اقتصادياً وصحياً ومعرفياً ومهاريًا وقانونيًا واجتماعيًا وسياسيًا، وصولًا إلى المواطنة كاملة الحقوق والشراكة وإدارة شئون الحياة وصنع المستقبل.

يشكل تمكين المرأة والأسرة المهجرة سياسة متكاملة للنهوض بشئونها وتحولها من السلبية والاتكالية والتبعية للمعونات الخارجية وعمليات الإسعاف والإغاثة إلى كيان يمتلك القدرات والمهارات والمعرفة والدافعية لتولي زمام أمور حياتها وحياة أسرتها، ومواجهة تحديات حياة التهجير وظروفه الحرجة. وهو ما يتجاوز مجرد التمكين المادي على أهمية الحيوية في ظروف التهجير وخسارة مواردها في موطنها الأصلي.

ويمثل العنصر الحاسم في عملية التمكين التحول من علاقة تقديم الخدمات الفوقية وتلقيها بشكل اتكالي إلى علاقة الشراكة الحقيقية في التخطيط واتخاذ القرار لإدارة حياتها في وضعية التهجير، ومن ثم تمكينها من إعادة بناء حياتها وحياة أسرتها ومجتمعها المحلي بعد العودة.

وتتطلب هذه المشاركة العمل على إطلاق طاقات النماء لديها، وتحريك دافعيتها للخروج من الاستسلام للعجز، وفقدان الثقة بالنفس والقدرات، وصولاً إلى استعادة الاعتبار الذاتي والإيمان بالحق في العيش الكريم، من خلال مساعدتها على استكشاف مواطن قوتها، والإمكانات الخفية المتوافرة لها ولجماعتها وفرصها غير المنظورة، ومن خلال تغيير الرؤية والأفكار ومفهوم الذات وإعادة التأهيل في ظروف حياة التهجير والاستعداد لإعادة بناء المستقبل بعد العودة. وهو ما يتطلب إقلاع جمعيات المجتمع المدني والوكالات الأخرى عن الاقتصار على أعمال الإغاثة على حيوتها في بداية التهجير، والانطلاق في برامج تمكين راهنة ومستقبلية.

ثالثًا: التحرك من الشغل على المشكلات إلى اكتشاف الإيجابيات والبناء عليها

وهو ما يشكل المبدأ العام الذي تبنى عليه كل التوجهات والإجراءات التي تحكم عملية التمكين. مما يستلزم البحث عن الإيجابيات وأوجه القوة لدى المرأة المهجرة وأسرتها واستكشاف الإمكانات والفرص المتوافرة في محيطها.

تكمن أهمية هذا التحول من السلبي إلى الإيجابي، في أن النماء الإنساني ذاته وبناء التمكين وأوجه الاقتدار إنما تقوم على إبراز الإيجابيات وتفعيلها والبناء عليها. فليس هناك من نماء يقوم على مجرد علاج ما هو سلبي، وليس هناك إنجاز من أي نوع

كان إلا ويقوم على ما هو إيجابي في الوضعية والظروف. كل إنجازات البشرية قامت على البناء على الإيجابيات المتوافرة وحسن استثمارها وصولاً إلى تعظيمها؛ بحيث تصبح القوة المحركة الفعلية لكل تقدم (Maddux, 2002). السلبيات تشكل معوقات ولكنها لا تبني. ولذلك لابد من التعامل معها وعلاجها بحيث يمهد السبيل أمام تحريك ما هو إيجابي. إلا أن مجرد علاج السلبيات والمشكلات وإن كان يزيل المعوقات والعقبات فإنه لا يضمن انطلاق عملية النماء ووصولها إلى غايتها. الإيجابيات بحاجة إلى استخلاص والقيام بتعزيزها وتفعيلها. وإذا ما تحقق ذاك تفتح السبل أمام عملية التمكين وبناء القدرات والنماء. ذلك هو مبرر هذا التحول في النظرة على مستوى البحث والتخطيط والتدخل. ولا تتمكن المرأة وأسرتها وتصل إلى مستوى الاقتدار والإمساك بزمام مثيرها وصناعة كيانها إلا بمقدار ما تنمي إيجابياتها وإيجابيات أفرادها الذاتية، وتعظم إيجابيات محيطها الاجتماعي، وما توفره من فرص لإطلاق طاقات الحياة والنماء. ذلك أنه حتى المشكلات لا تكون قابلة للحل إلا بمقدار توافر إيجابيات يمكن البناء عليها، وإلا فإنها تتحول إلى معضلة مستعصية.

رابعاً: الشراكة وتعريفها

هي مقاربة تنموية تتضمن علاقة تكامل بين إمكانات وقدرات طرفين أو أكثر تتوجه لتحقيق أهداف محددة في إطار من المساواة بين الأطراف لتعظيم وتثمير المزايا النسبية التي يتمتع بها كل طرف، في إطار من الاحترام المتبادل، وتوزيع للأدوار والمسئوليات بقدر عالٍ من الشفافية (قنديل، 2008).

يعكس مفهوم الشراكة مقارنة تنموية تمكينية تنهي "نموذج التنمية من أعلى إلى أسفل" وصولاً إلى نموذج "التشارك الأفقي المتوازي" وانتهاء بـ "نموذج التنمية من أسفل إلى أعلى"، حيث تنطلق المبادرات من الجهات المحلية وفاعليها الأساسيين، وتطلب المساعدة من الجهات الأعلى على شكل تقديم المشورة في التدريب والإسهام في توفير الموارد والإمكانات اللازمة لتنفيذ المشاريع، والتشارك في متابعة التنفيذ والتقييم.

1. شراكة في اقتراح البرامج والمشروعات، وفي توفير الموارد وتثمير الإمكانات وتفعيلها، وشراكة في التنفيذ، وشراكة في المتابعة والتقييم. وبالتالي يشكل تعظيم المزايا والإمكانات النسبية لكل طرف بعداً رئيسياً في تعريف الشراكة. وتضم هذه المزايا استقطاب القيادات المحلية والمتطوعين وصولاً إلى تحريك القواعد الشعبية وتحديد احتياجات وأولويات المجتمعات المحلية، وتوفير مبادرات وإبداعات في التعامل مع القضايا المطروحة وتعظم الإمكانات.

وتقوم الشراكة بالتالي على توزيع الأدوار والمسئوليات المتصفة بالوضوح والتوافق عليها، والالتزام المتبادل من قبل كل طرف بأدواره ومسئولياته. وبذلك تكون الشراكة فلسفة في التنمية المحلية والتمكين تحددها اتفاقية محددة لأصولها وأهدافها وعملياتها، تتبنى قيمة العمل الجماعي والمبادرات من أدنى إلى أعلى. وهي تتطلب قبول التنوع والبناء على إيجابياته من خلال الحوار الديموقراطي وقبول الآخر، والمساءلة وإدارة الاختلاف، والشفافية، وخصوصاً كسر الروتين البيروقراطي في العمل التنموي الهادف إلى التمكين الأسري والمحلي والوطني.

2. عقبات رئيسية تواجه بناء الشراكة الفاعلة

هناك عدة عقبات رئيسية تعوق الشراكة الفاعلة ويتعين العمل على تجاوزها، أبرزها ما يلي:

أ. معوقات تقاليد العمل الفوقي الذي تمارسه الهيئات العاملة مع المهجرين.

ب. معوقات عائدة لجمهور المستفيدين الذي تتفشى فيه ثقافة التبعية للسلطات الحاكمة السياسية والمحلية، والذي تعود على العلاقات الفوقية - التبعية، مما رسخ لديه سلوكات العجز المتعلم وتدني تقدير الإمكانات الذاتية وصولاً إلى طمسها وإهدارها. يتضح ذلك بجلاء في شرائح النساء الشعبية الهشة التي تعودت على تلقي المعونات ونفضت اليد من مسئولية إدارتها لحياتها وبناء مصيرها. وهو ما يستلزم، كما تدل التجارب التنموية، عملية تغيير ثقافي لهذا الجمهور بحيث يستعيد ثقته بإمكاناته وقدرته على المبادرة (Yazbeck, 1998).

3. مبادئ وقواعد إدارة العمل التشاركي مع شرائح النساء الأسر الشعبية المهجرة

يتطلب ترسيخ الشراكة على مستوى الممارسة التنفيذية إرساء قواعد عمل تتيح تدريب نساء هذه الشرائح بحيث تصدر الأفكار عنهن. ويأخذ هذا التدريب من خلال المشاركة الفعلية وقتاً بالطبع وصولاً إلى التحول من العلاقات الفوقية التبعية إلى العلاقات التحتية الأفقية وصولًا إلى التحية الفوقية.

وتقوم هذه الممارسة على عدة مبادئ وقواعد لابد أن يدرب عليها المنشطون للجماعة المهجرة أولاً، وصولاً إلى التمكن من أدواتها والقناعة بأهميتها وجدواها (هوب وتيميل، 2010). أبرز هذه القواعد ما يلي:

أ. يمتلك كل إنسان خبرة واسعة ويتعلم الكثير من الحياة وبشكل خاص ممن تشبه أوضاعهم أوضاعه، ومن هم أكثر خبرة منه. ولذلك يتعين على المرشد أو المدرب أن يساعد أفراد المجموعة على تبادل الخبرات عبر خلق مناخ يشجع على الحوار؛ وذلك من خلال الجلوس في حلقة حيث يستطيع كل واحد منهم مخاطبة الآخرين والاستماع إليهم والنقاش معهم وجهاً لوجه.

ب. يهتم كل إنسان بالأمور التي ترتبط مباشرة بحياته وقضاياه واهتماماته وحاجاته ويتعلمها بسرعة. ولذلك على المرشد/المدرب أن يشجع أعضاء المجموعة على المشاركة في اختيار المواضيع التي تهمهم ويخططون لمناقشتها واستخلاص النتائج منها.

ج. يتعلم الناس عادة عندما يكتشفون الأمور بأنفسهم ويتذكرون الأشياء التي قالوها بأنفسهم أكثر من تذكرهم للمعلومات التي تليت عليهم. ولذلك على المرشد/المدرب أن يتجنب التلقين وإملاء المعلومات ما أمكن، وأن يجعل المعرفة تنبع من مشاركة أعضاء المجموعة.

د. يتعلم الناس من خبراتهم وتجاربهم أكثر مما يتعلمون مما سمعوه أو قرأوه. وحتى يتم ذلك خلال الجلسة يطلب المرشد/المدرب من كل عضو، أو من كل ثلاثة أعضاء (حيث تقسم المجموعة إلى ثلاثيات) أن يصفوا "أهم حدث استفادوا أو تعلموا منه". وفي خطوة تالية يحددون "ما هو الشيء الذي جعل ذلك الحدث مفيداً"، وفي خطوة ثالثة "أن يعدوا الأسباب التي جعلت الاستفادة ممكنة".

ثم يجري نقاش في المجموعة الكلية لأفكار كل ثلاثية من الثلاثيات: ما هو أهم حدث، ما هو الشيء الذي جعله مفيداً، وما هي أسباب هذه الفائدة؟

تطبق هذه الطريقة على القضايا والمشاكل والحاجات التي أتى الأعضاء لإيجاد الحلول لها. وعلى المرشد/المدرب أن يتذكر أن أهم الحلول وأكثرها حظاً بأن تقبل وتطبق هي تلك التي تنبع من المجموعة ذاتها.

هـ. يجب أن يحظى كل عضو في المجموعة على فرصة بالمشاركة وبالتشجيع على التفكير. ولابد من تشجيع التعبير عن أي اقتراح مهما بدا محدود الأهمية. ذلك أن مثل هذه الاقتراحات يمكن أن تتم مناقشتها والتفكير فيها وتطويرها بحيث ينتج عنها حل فعلياً للمشكلة.

إننا بصدد إعطاء الفرصة للمجموعة كي تتعلم بمبادرتها الذاتية، فذلك هو ما يرسخ. فالتعليم النابع من الذات والتجربة والمعايشة أهم من التعليم التلقيني.

و. لا يؤدي التعلم الذاتي (على عكس التعليم التلقيني) فقط إلى ترسيخ المعلومات، وإنما يؤدي إلى تبني الحلول وتنفيذها. ويشكل ذلك فرصة مهمة في التدريب على المبادرة الذاتية وتحمل مسئولية شئون أعضاء الجماعة بأنفسهم. إنه درس في تشجيع التفكير والمبادرة إلى إيجاد الحلول، وتنمية روح المسئولية الذاتية على تولي الأعضاء لأمور حياتهم بأنفسهم. وبقدر ما تشجع المبادرة وتنمو المسئولية ستفتح أمام الأعضاء فرص استعادة الاحترام الذاتي والتقدير الذاتي والتحمس

لمزيد من المبادرات للتفكير بحلول نابعة من تجربتهم وعالمهم. ذلك هو البحث معاً من قبل أعضاء المجموعة عن الأجوبة بدلاً من إملائها.

ز. يشدد هذا الأسلوب على تمكين أعضاء المجموعة من خلال المشاركة الإيجابية، ومن خلال وعيهم بقدراتهم، مما يفتح باب التغيير وتدبر وسائله. ذلك أن التحرر والتطور ينطلق من الناس أنفسهم، وإن أفضل تغيير هو ذلك الذي ينبع من آرائهم وقراراتهم ويتعلق بحاجاتهم. إننا بصدد إتاحة الفرصة لتولي مسئولية المصير الذاتي بدلًا من إملاء الحلول وتقديم الوصفات الجاهزة التي قد لا تمت إلى عالم أعضاء المجموعة وانشغالاتهم ورغباتهم. وهكذا فإن بناء جماعة معافاة يتطلب تشجيع أعضائها على التعبير عن فهمهم للأمور، وتشجعيهم على تشخيص حاجاتهم معًا، وعلى تحليل أسباب مشكلاتهم معًا وصولًا إلى فتح المجال أمامهم كي يخططوا ويعملوا جماعياً وتشاركيًّا. إننا بصدد تولي مسئولية مصيرهم بدلًا من الوعظ والوصاية والفوقية وتقديم الوصفات الجاهزة. ويستطيع المرشد/المدرب أن يزود ببعض المعلومات ويقدم بعض الاقتراحات، وعليه أن يتعلم من أعضاء المجموعة أو الأسرة بقدر ما يعلمهم ويشير عليهم وينصحهم.

القسم الثاني: تجربة "عامل" وفلسفتها في العمل التنموي المشارك مع السوريات مؤسسة عامل

عامل هي جمعية مدنية لا طائفية، تأسست في أعقاب الغزو الإسرائيلي لجنوب لبنان في العام 1978. لديها حالياً 24 مركزاً في المناطق الشعبية على امتداد الأرض اللبنانية، يعمل فيها 700 شخص بينهم 200 يتقاضون نسبة مئوية من أتعاب نشاطهم التخصصي في المؤسسة، إضافة إلى 6 عيادات نقالة بين المناطق تبعاً للاحتياجات المحلية.

عامل جمعية مدنية غير طائفية

إن "عامل" التي خرقت التقليد في المجتمع المدني، مؤسسة صحية، اجتماعية، تنموية، حقوقية. اختارت التزامها بالمواطن-الإنسان بمعزل عن خياراته، وعلى مدى نيف وثلاثين عاماً، ما انفكت "عامل" في خطها الوطني الإنساني، الرافض للطائفية وسياسات الشحن والتحريض، وكل ما يعوق قيام الدولة - الوطن، على قاعدة المساواة في الحقوق والواجبات. وكانت لا تزال تمارس دور المحرك في إطار منظمات المجتمع المدني، في الحرب الغشوم والسلم القلق، متصدية لثقافة الانقسام والنقد الهدام وهيمنة الشخص، وذهنية كل شيء أو لا شيء السائدة عموماً في عالمنا العربي. ولأن "عامل" لا تمثل فئة أو طائفة، فقد استمدت قوتها من فعاليتها في المناطق الشعبية، معتمدة صيغة الانفتاح على الجميع، ما أتاح لها مجالاً حيوياً لتطبيق برامجها التنموية، والتواصل الإيجابي مع كل الفئات، مشددة على ثقافة الحقوق، في حرية التعبير والصحة والتعليم والعمل والسكن والغذاء والبيئة السليمة، ومشاركة المرأة في المجتمع، وتعزيز دور الشباب جيل الحاضر والمستقبل، وذلك بمعزل عن الخيارات السياسية والعقائدية وعن الانتماءات الجغرافية.

ومن أجل ذلك تبنت عامل عدة متطلقات أبرزها ما يلي:

1. رفع شعار "التفكير الايجابي والتفاؤل المستمر"، في وجه شعار "الهدم على يدي ولا البناء على يد الغير".
2. اعتماد خطة "الميمات الثلاث": مبدأ، موقف، ممارسة، أي "فكر" و"قول" و"ممارسة". لأن العمل القويم يفترض وجود مبدأ، والمبدأ يفترض موقفًا والموقف يتطلب ممارسة.
3. اعتماد أسلوب في التعاطي مع الأصدقاء والمحايدين والأخصام. عبر توثيق العلاقة مع الأصدقاء، وتحويل المحايدين إلى أصدقاء، والسعي إلى تحييد الأخصام.

4. اعتماد الحس القيادي السليم، وتضمين مفهوم القيادة ذي البعد المدني مبادئ أساسية، منها: "النظر دائمًا" إلى الأمور من عدة زوايا في آن معًا"، والتعاطي المباشر والمبسط والعلني مع المشكلات اليومية، ولعب دور المحرك الفعال لطاقات الناس، عبر اكتشاف طاقاتهم الكامنة. بالإضافة إلى تبني ثقافة الحوار البناء وتوزيع الأدوار، لا ثقافة الإملاء، مع الأخذ بعين الاعتبار (NiroSivanathawa and others, 2004) عدم إغفال أهمية النقد الذاتي وإعادة التقويم، في سبيل الحفاظ على الشفافية والرؤية العلمية في ترشيد العمل التطوعي.

وفي ظل استيعاب هذا الواقع، انطلقت "عامل" في خطط واستراتيجية مع برامج متخصصة تعتمد على توجه مثلث الأضلاع (خدمة-تنمية-حقوق) عبر توفير:

أ. مشاريع الخدمات الصحية - الاجتماعية التربوية التأهيلية في المناطق الشعبية مع مساهمات رمزية من المستفيدين في روح من التضامن وليس الإحسان.

ب. البرامج التنموية المتمثلة في أن تكون أكثر إشراكاً للناس في المجتمع المحلي وبلورة مشروعات مبرمجة للتنمية والعمل.

ج. من أجل تعزيز ثقافة حقوق الإنسان في التعبير والصحة والتعليم والسكن والبيئة والغذاء والعمل وتطوير مفهوم التنمية التشاركية بدءاً بالمرأة والشباب والفئات المهمشة باتجاه بناء المواطن - الإنسان بمعزل عن الخيارات السياسية والثقافية، باعتبار أن منظمات المجتمع المدني، ومن ضمنها "عامل"، يجب أن تعمل على تعميم ثقافة الحقوق والتخلص من التعصب والتمييز القائمين على أساس الدين والعقيدة. وتعمل على إقرار مساواة جميع المواطنين أمام القانون وحق كل منهم في حرية التفكير والتعبير. أصبحت "عامل" منذ العام 2010 جمعية دولية مقرها جنيف، والهدف من ذلك، السعي وبالتعاون مع منظمات المجتمع المدني الصديقة في بلاد الشمال والجنوب إلى تفعيل العمل الإنساني، وعدم إغراقه في "أجندات" لا تتوافق مع مصالح شعوبها، إلى الالتزام بقضايا الشعوب العادلة، وأن يكون الإنسان هو الهدف والمحرك. وفي هذا السياق فإنها تتشارك في تنفيذ برامج مشتركة مع جمعيات في مصر والأردن وجنيف وفرنسا...

في كل هذه التوجهات لابد من العمل من خلال المشاركة الفاعلة للفئات الشعبية بحيث تصبح هي الفاعل والمبادر واللاعب الأساسي، ويصبح دور هيئات المجتمع المدني هو دور الميسّر الذي يوفر الموارد والخبرات، ويشكل على الدوام صمام أمان وقوى ضاغطة باتجاه بناء المواطن المتمتع بكامل حقوقه والمنمي لكامل طاقاته وقدراته، والممسك بزمام مصيره وتسيير حياته، والمشارك بفاعلية في التنمية الوطنية المستدامة.

تعمل هذه الشراكة على تحقيق أهداف عامل التالية:

1. توفير الحق للجميع في التعبير، الصحة، التعليم، السكن، العمل، الغذاء، البيئة السليمة، بمعزل عن الجنس والعقيدة والدين.
2. تمكين الفئات المهمشة للمشاركة في العملية التنموية وتشجيع المبادرات المحلية والتقويم المستمر للبرامج وتصويبها بما يتلاءم مع حاجات الناس وتطلعاتهم.
3. إشراك النساء في الاستراتيجية التنموية للجمعية وتعزيز دورهن الريادي في المجتمع.
4. إشراك الشباب في البرامج التنموية، خصوصًا التعليمية والتدريبية منها، وتأهيلهم لتحمل المسئوليات القيادية مستقبلًا.
5. تعزيز التنسيق مع الهيئات الأهلية، محليًا، إقليميًا، وعالميًا، والشراكة مع القطاعين العام والخاص في البرمجة والتخطيط والتنفيذ، من أجل تنمية مستدامة.

تحديات أزمة النازحين

يضاف إلى التحديات التي تواجهها مؤسسة عامل الدولية والمجتمع اللبناني كافة، أزمة النازحين، المستمرة منذ خمس سنوات والتي تزداد سوءًا مع الوقت، فلبنان المثقل بأزماته الحيوية يستضيف اليوم ما يعادل حوالي نصف سكانه من النازحين، في ظل غياب التضامن الدولي وإنهاك المجتمع المضيف.

فإيجاد صيغة موازنة بين العمل مع المجتمع اللبناني والنازحين السوريين هي مسألة صعبة جدًّا، خصوصًا أن المانحين والمنظمات الدولية، لم يقدموا حتى الآن للمجتمع اللبناني المضيف (الذي يعاني نصف سكانه من الفقر المدقع والبطالة بكل أشكالها) أي مقومات إسنادية تساعده على احتضان هذا العدد الهائل من النازحين، الذي يعيش 70% منهم تحت خط الفقر وبدون أي إنتاج مادي، في ظل تخفيض المساعدات التي كانت تقدم لهم سابقًا من منظمة الأغذية ومفوضية اللاجئين.

ولكن "عامل" وعلى الرغم من هذا الواقع لا تزال تجد قدرة على الاستمرار بجميع خدماتها واحتضانها للمجتمع اللبناني ولكنها تحذر من أن الوضع "كارثي متفجر" وأن أزمة النازحين إذا بقيت على هذه الحال، فهي قنبلة موقوتة، ستنفجر في وجه الجميع.

وكانت "عامل" قد اقترحت حلولًا لتفادي هذه الكارثة، انطلاقًا من رؤيتها وتجربتها في هذا الميدان، وترى إمكانية لتحقيق هذه الحلول عبر ممارسة كل أشكال الضغوطات على المجتمع الدولي من أجل إيجاد حل سياسي للأزمة في سوريا لكي يتمكن النازحون من العودة إلى بلدهم، وبانتظار ذلك أن يقوم لبنان بإجراءات أساسية.

1. أن تضع الحكومة اللبنانية خطة طوارئ شاملة في المجالات الاقتصادية والاجتماعية والصحية والتربوية والإغاثية، وبالتعاون مع منظمات المجتمع المدني في لبنان والبلديات كشريك في التخطيط والتنفيذ، وأن يتم التعاون مع المنظمات الدولية وفي المقدمة المفوضية العليا للاجئين والأمم المتحدة، وأن يعطي دور كبير في هذه العملية للهيئة العليا للإغاثة ولوزارة الصحة والشئون الاجتماعية ومنظمات المجتمع المدني اللبناني في تحديد الحاجات وكيفية تلبيتها بالتعاون مع المنظمات الدولية.

2. إطلاق بحث مع الأمم المتحدة لإعطاء النازحين منحًا مالية تقدم مباشرة للعائدين إلى سوريا، بحيث يمكنهم الاستفادة من إعادة بناء منازلهم وتمكينهم من استعادة حياتهم الطبيعية في بلادهم.

3. تنسيق المنظمات غير الحكومية الدولية مع الهيئات الأهلية اللبنانية كشريك ومن موقع الندية، ولا تعمل على أخذ دورها كما يحصل حاليًا في أغلب الأحيان، وهذا ما يسمى بالاستعمار الجديد (Neocolonialism) وإلى صرف المساعدات في معظمها على النازحين وليس للأمور الإدارية واللوجستية والبزنسة.

4. أن توفر الحكومة خطة طوارئ ثانية، في حال ازداد الوضع في سوريا سوءًا كحصول معارك في دمشق وريفها التي يقطن فيها حوالي ستة ملايين نسمة سيلجأ منهم إلى لبنان مليون نسمة على الأقل، خاصة إلى منطقة البقاع المتاخمة مما يعني أن عدد النازحين سيوازي ضعف سكان لبنان، مما يضاعف في الحالة الكارثيةالتي نعيشها.

5. خطة طوارئ ثالثة: عندما يتم إيجاد حل سياسي للأزمة في سوريا، فما هو دورنا؟ خاصة منظمات المجتمع المدني، في مساعدة أهلنا في سوريا في عملية إعادة البناء والتأهيل وإعادة الحياة إلى مجراها الطبيعي.

ففي أفضل حالاته لم يتخط الدعم الذي توفره المنظمات الدولية لمواجهة احتياطات النازحين إلى لبنان نسبة 19% فقط من حجم الدعم الموعود.

منهجية العمل مع المرأة في مؤسسة عامل

إن الرؤية التي تقود مؤسسة عامل الدولية، في العمل الاجتماعي- الإنساني، مستمدة بالأساس من التجربة الميدانية ومستنبطة من حاجات وخصوصية المجتمع اللبناني الذي نشأت فيه، الأمر الذي أعطاها طيلة العقود الماضية، القدرة والليونة على إحداث التغيير ونشر بذوره في مختلف الميادين والأجيال.

إن عامل لا ترى أن هناك أي إمكانية لصناعة التغيير في العالم العربي، عبر قوالب مستوردة من المجتمعات الأخرى، وخصوصاً الغربية، ذلك أن بنية كل مجتمع تتطلب أدوات مختلفة ومدروسة لمعالجة مشكلاته وحاجاته، وقد راكمت خلال تجربتها الطويلة خبرات ونظرة عميقة في المشكلات والأزمات الاجتماعية التي يعاني منها لبنان، ولاحقًا استطاعت تكوين فكرة عملانية حول النسيج الاجتماعي للاجئين السوريين والعراقيين، والنفوذ عبره لايجاد جسور تواصل ودمج مع المجتمع المضيف، عبر ترويج ثقافة المواطنة والحقوق المدنية، بعد أن قدمت مليون ونصف المليون خدمة لهؤلاء اللاجئين خلال السنوات الـ4 الماضية.

إن مؤسسة عامل وفي صلب رؤيتها وتأسيسها، تساند قضايا المرأة وتراهن عليها في زرع الثقافة الجديدة وبناء الأسرة، فهي أم المجتمع ومخزن الثقافة والقيم، وهي الموجه الأول للذكور ومصدر لثقافتهم وسلوكهم الاجتماعي، ومن الجدير بالذكر في هذا السياق أن 80% من أصل 800 عامل ومتطوع في مؤسسة عامل هن من النساء والفتيات، وذلك لما تراه عامل من قدرة على القيادة الاجتماعية والإنسانية التي تتميز بها المرأة، إضافة إلى القدرة على القيادة والتغيير السياسي الذي لم تعط المجال الحقيقي حتى اليوم في العالم العربي، ولكن عامل تعمل من خلال قواعد علمية معينة، أبرزها، أن التمكين الاقتصادي - الاجتماعي والذي يترافق مع توعية ثقافية ورعاية صحية هو السبيل العلمي الوحيد لبناء قدرة قيادية في المجالات السياسية للنساء وليس العكس.

إن النضال من أجل الحقوق السياسية للمرأة، هو عملية دوران في حلقات مفرغة، تصب في آخر المطاف في مصلحة النظام السلطوي الأبوي الذي يحكم معظم ثقافات وحكومات العالم إلى حد اليوم، وخصوصاً لبنان والمنطقة العربية، وقد التمست مؤسسة عامل هذا الأمر بعد عقود من نهاية الحرب الأهلية وعمل ميداني مع جميع البيئات في المجتمع اللبناني، لتلاحظ أن منظومة القيم والسلوك التي كانت تنقلها الأم لأطفالها قبل الحرب الأهلية وحتى اليوم، هي ذاتها، مما يؤدي إلى إنتاج شكل النظام السياسي نفسه، والعقلية نفسها، على الرغم من وجود حرية سياسية للنساء في لبنان.

كيف استطاعت عامل النفاذ من هذا النسيج المعقد وزرع بذور التغيير؟

معظم المراكز التابعة لمؤسسة عامل تحرص على وجود برامج تأهيل وتمكين تعنى بالمرأة، تتضمن التمكين المهني، التأهيل النفسي والاجتماعي، التوعية الصحية، التوعية الثقافية، ترويج حقوق الإنسان والمرأة.

كما تخصص مركزًا كاملًا في منطقة عين الرمانة، للتنمية الاجتماعية الخاصة بالنساء، تنظم فيه بشكل دوري ومنذ العام 2007، دورات مهنية منوعة، وجلسات توعية اجتماعية وثقافية في مجالات عدة. وقد أنشئ المركز بداية بغية الاستجابة لحاجة اللاجئات العراقيات، ليتوسع وتتوسع خدماته لاحقًا ليشمل اللاجئات السوريات والسودانيات، وغيرهن من ضحايا الحروب والأزمات الاجتماعية، وهو الآن ملاذ لـ 600 امرأة يشاركن في التدريب والإنتاج الحرفي وجلسات التوعية بشكل دائم، إضافة إلى باقي النساء اللواتي يأتين بشكل مستمر للاستفادة من إحدى خدمات المركز.

ويذكر هنا أن العدد الأكبر من النازحين السوريين يتكون من النساء والأطفال، حيث يعيش في لبنان، سواء ضمن الـ 1300 مخيم الرسمي وغير الرسمي، أو ضمن المناطق السكنية الداخلية، حوالي 600 ألف امرأة.

اعتمدت مؤسسة عامل نهجاً متمايزاً عن باقي الجمعيات التي تعنى بشئون المرأة في العالم العربي، وعلى الرغم من أنها تتشارك مع هذه الجمعيات والمنظمات المحلية والدولية في مناصرة قضايا المرأة ودعم دورها الاجتماعي والسياسي في المجتمعات، والإيمان بمكامن التغيير والقوى التي تمتلكها لتغيير مصير العالم وإنشاء الثقافة الجديدة، إلا أن مؤسسة عامل وبعد التجربة الميدانية والعمل مع المرأة العربية من خلال برامجها، اكتشفت أن كل خطاب صدامي ضد الرجل هو خطوة خاسرة في سبيل تحقيق الحصانة والعدالة للنساء، لأن الرجل هو الشريك الطبيعي للمرأة في بناء المجتمعات وتحقيق قيم العدالة والديمقراطية، وهو في آخر الأمر ابن هذه المرأة.

وتمتلك عامل رصيداً غنياً من التجارب الناجحة، التي أدت إلى التعاون مع جميع أفراد الأسرة، على تحسين وضع المرأة وتغيير مكانتها وحقوقها ضمن هذه الأسرة أو البيئة الاجتماعية.

من هنا وفي إطار الدور المناط بمؤسسة عامل لتأدية مهمة رئيسية تتمثل في العمل مع اللاجئين السوريين، وتأهيلهم لبناء بلدهم بعد الحرب، ناضلت خلال السنوات الأربع الأخيرة، لتحصين اللاجئين من تكرار النموذج اللبناني في بلدهم والعمل مع جميع الشرائح العمرية لصناعة الكوادر الاجتماعية التي سيلقى على عاتقها بناء المجتمع السوري، عبر مجموعة من الآليات المتكاملة ضمن الرؤية الكبيرة لمستقبل أفضل.

2016 - 2011 دخول سوق العمل وإشراك الرجل	**بداية الحرب السورية والنزوح:** تم إطلاق برنامج تمكين المرأة اقتصادياً وإعطائها فرص الدخول لسوق العمل، إضافة إلى اعتماد برامج تدريب وتأهيل اجتماعي تهدف لبناء كوادر تعيد بناء سوريا، اقتصادياً وبيئياً واجتماعياً وتربوياً، إضافة إلى برامج تأهيل وتوعية الرجال وإشراكهم في عملية التعرف والدفاع عن حقوق المرأة

تعمل المؤسسة لإعداد قيادات اجتماعية نسائية وشابة عبر تقنية الفهم الجماعي وتوزيع المسؤلية، أي تقسيم المسئولية والعمل مع الشرائح الرئيسية المؤثرة على قضايا المرأة (سواء ضمن مجتمع اللاجئين، أو المجتمع المضيف) ضمن البرنامج الأساسي في قسم الجندرة ومناصرة قضايا المرأة في عامل:

العمل مع النساء المهجرات

برنامج التمكين الاقتصادي وفرص الوصول إلى سوق العمل	أدواته: تدريب مهني - تمكين اقتصادي - تطوير علمي - قروض صغيرة.
برنامج التأهيل الصحي - النفسي	رعاية صحية ونفسية للنساء المتأثرات بالحرب والعنف - توعية صحية - ترشيد استخدام الأدوية - توعية اتجاه الأمراض النسائية والصحة الإنجابية.
برنامج التمكين الاجتماعي وثقافة الحقوق	اشراكها في تشكيل لجان تنشيط اجتماعي داخل المراكز - جلسات توعية حول مفهوم المواطنة وحقوق المرأة - توعية حول قضايا العنف الأسري والزواج المبكر والاتجار بالبشر وسبل التربية الحديثة وثقافة إعادة التدوير والحفاظ على البيئة.
محل "منا" منتجات نصنعها بأيدينا	مساحة خصصها المركز الرئيسي لمؤسسة عامل، يتم فيها تسويق وبيع جميع المنتجات الحرفية التي تصنعها النساء المستفيدات من مختلف مراكز المؤسسة، ويتم فيها عرض صابون ومونة بيتية وإكسسوار وقطع فنية وتراثية. يستفيد من المتجر حوالي 300 امرأة.

في آلية العمل

واحدة من أبرز النشاطات التي تقوم بها اللاجئات في المراكز التنموية التابعة لمؤسسة عامل، هي تشكيل لجان متخصصة، من قبل النساء النازحات أنفسهن، تختار كل لجنة موضوعاً تهتم به وتلاحق تطوراته وتقترح من ضمنه نشاطات.

موضوع إعادة التدوير مثلاً، تم طرحه في مركز عين الرمانة، وارتأت الإدارة بدلاً من فرضه، تشكيل لجنة نسائية من اللواتي يمتلكن الخبرة في الأشغال الحرفية واليدوية لاقتراح النشاطات التي تخدم هذا الغرض. وبالفعل تشاورت هذه النساء وطرحت كل منهن معطيات عن المواد الأكثر توافراً في البيئة التي تعيش فيها، فافتتحت مؤسسة عامل قسماً خاصاً للتدريب والإنتاج في هذا المجال، مدته بالمواد الأولية، كما واظبت اللاجئات من جهتهن على إحضار بقايا ومخلفات النفايات الصلبة إلى المركز، من بيوتهن ومن عند الجيران أو الحي بأكمله.

وأصبح هذا القسم، اليوم ينتج ويبيع في عدة معارض ومناسبات ليعود ريع هذه المنتجات للنساء اللواتي أنتجن أدوات وتحفًا فنية.

وقد تم وضع خطة وآلية عمل ستتبعها النساء المشاركات في هذا القسم، لتطبيقها عند العودة لسوريا، ولنقل هذه الثقافة للعائلة بأكملها.

وهكذا يتم في مؤسسة عامل إحداث التغيير الثقافي، عبر التمكين وإعطاء فرص المبادرة دون طرح أي أدوات تصادمية، بل على العكس تحرص عامل في جميع نشاطاتها على إمداد اللاجئين واللاجئات بأدوات تغيير وتطوير سلمية يتبعونها في بلدهم وتساهم في نهضة المجتمع.

العمل مع الرجال

برنامج التأهيل المهني	خصصت عامل دورات تأهيل مهني في مجالات عدة يلتحق بها الرجال والذكور من كل الأعمار، إضافة إلى دورات تعليم اللغة ومحو الأمية التكنولوجية.
برنامج التوعية والمناصرة الاجتماعية	تم تخصيص سلسلة من النشاطات وجلسات التوعية التي تستهدف إشراك الرجال في فهم دور المرأة والاعتراف به وتبني ثقافة الحقوق ومساعدة نساء عائلاتهم على تحقيقها عبر نشاطات واختبارات متخصصة.

يتم في المراكز التي تعنى بدورات تأهيل وتمكين للرجال والشبان، تشكيل لجان مشابهة لتلك النسائية في مركز عين الرمانة وغيره، ويتم اختيار عدد من المواضيع التي تتعلق بتطوير الثقافة المجتمعية وبناء مفهوم المواطنة التي من ضمنها حقوق المرأة.

بجانب جلسات التوعية ودورات التمكين التي يخضع لها الرجال، يتم انتقاء موضوع متعلق بالمرأة، وتنظم نشاطات بهدف توضيحه ونشره، وعلى سبيل المثال، في أحد النشاطات، تقوم اللجنة، بالطلبمن عدد من المستفيدين الرجال والذكور، بجمع خمس حسنات من البيئة المحيطة بهم عن المرأة المتعلمة وفائدة ذلك على الأسرة، من الناحية الصحية والاقتصادية.

ويتم عرض النتائج في قاعة، تليها اختبارات أخرى بعضها يقصد فريق عامل أن يكون طابعها مسليًّا ومرحًا، ومدروسًا سيكولوجيًّا، بهدف النفاذ إلى داخل وعي هؤلاء الرجال وتثبيت الأفكار التي سمعوها واكتشفوها مؤخراً عن وضع المرأة.

وقد تم حتى اليوم مسح نسبة التغير الثقافي عند 2000 رجل من اللاجئين في منطقة بيروت وضواحيها، خضعوا لهذه الجلسات والاختبارات، ومعظمهم تحت سن الـ 40.

العمل مع الفئات الشابة

برنامج التأهيل المهني والتعليمي	خصصت عامل خلال السنوات الخمس الماضية برامج استفاد منها حوالي 10 آلاف شاب وشابة سورية وفلسطينية في مجال التعليم المهني وتأهيل الإمكانيات والمهارات الحياتية لهم ومساعدتهم لتكميل تعليمهم أو إيجاد عمل لائق.
برنامج التطوع وثقافة الحقوق وبناء الكوادر الاجتماعية	تنظم عامل سلسلة نشاطات توعية حول دور الشباب في قيادة المجتمع وزرع ثقافة المواطنية التي تضمن مكانة الرجل والمرأة وكل إنسان، وتم تشكيل لجان شبابية مختلطة مهمتها اتخاذ المبادرات واقتراح النشاطات لمعالجة مشاكل المناطق التي يعيشون فيها أو سيعودون إليها.

نماذج من القصص الناجحة والتجارب العملية

حكايا وتجارب

استطاع فريق مؤسسة عامل الاجتماعي حتى اليوم ومنذ العام 2012 رصد 2000 حالة زواج مبكر بين النازحين الذين يتعاون معهم. فيما تمكن هذا الفريق من التأثير لمنع 23 حالة زواج أطفال عبر التوعية والدعم للأهل، ومنهم الصفة التالية:

عمر نور 16 ربيعاً قضت أربعًا منها بين زخات الرصاص واحتمالات الموت، في بلدها الأم سوريا. تهجرت ابنة إدلب المحافظة الشمالية التي تسيطر عليها جبهة النصرة الإرهابية من حوالي عامين، إلى دمشق، ومن ثم إلى بيروت، إلى "الغربة الكبيرة" كما تسميها نور، فهي مدينة صعبة وشرسة وغير قابلة للترويض خصوصًا بالنسبة لأبناء القرى والريف السوري الذي يتسم بالبساطة والعفوية، إلى جانب عدم امتلاك الأدوات المناسبة لإيجاد باب إنتاج مادي في المدينة.

تقول نور خميس وهي المتدربة في مركز بشار مهنا ومسلم عقيل التابع لمؤسسة عامل: "كنت أعاني عجزاً مضاعفاً، كوني لاجئة سورية، وفتاة في الوقت نفسه، فالعادات والتقاليد كانت تحاصرنا من كل جانب، والذهاب إلى المدرسة هو أكبر طموح ممكن أن تطلبه الفتاة من تلك البيئة الاجتماعية، ولكني لم أستسلم، ووجدت طريقاً أخرى، خصوصاً بعد أن بدأت أتابع دورات تأهيلية في مؤسسة عامل الدولية، فإلى جانب التثقيف والإسناد التعليمي الذي أمنته المؤسسة لي ولوالدتي، خضعت لتدريب على الانتاج في مركز التنمية الاجتماعي في عين الرمانة، وأصبحت أنتج الإكسسوار والأعمال اليدوية التي تعود علي بالفائدة المادية وهو الأمر الذي قلب كل الموازين".

تضيف نور أثناء لقائها مع فريق مؤسسة عامل الإعلامي: "أخذت الحرب منا الكثير، بيوتنا، كرامتنا، أموالنا، وراحة بالنا، لكننا في الوقت نفسه كإناث، استفدنا من هذه التجربة. سمعت عن مؤسسة عامل من صديقات أمي، فاتخذت المبادرة وذهبت أطلب منهم اكتساب مهارات تساعدني على إيجاد وظيفة لأن أشقائي عاجزون عن ذلك، وبعد أشهر من العيش في جو المؤسسة ذلك البيت الدافئ، مع مزيج من الطلاب من دول عربية مختلفة، ذكوراً وإناثاً، عززت ثقتي بنفسي وبدوري كأنثى في المجتمع، حتى أنني غيرت نظرتي إلى مؤسسة الزواج التي كنا نحلم بها، وتراجعت عن الإقدام على هذه الخطوة، كما تقبل أبي الأمر أيضاً وعدل عن قراره، وصرت اليوم أسعى لأساند أسرتي ولأكون إنسانة ناجحة. لم أعد تلك الصبية المختبئة في البيت. لم يعد أبي يمنعني من الخروج إلى المركز وأقابل الناس، بل تقبل فكرة بحثي عن عمل، أما أمي فهي سعيدة الآن أكثر، والأهم أنني ألقي معاملة يحلم بها كل إنسان من قبل فريق مؤسسة عامل، وصرت أستشيرهم في كل أمر بحياتي.

وتقول نور إنها أصبحت تحلم بافتتاح مراكز شبيهة لمؤسسة عامل في سوريا بعد رجوعها لمساعدة الفتيات اللواتي لم يجدن فرصهن بالحياة بعد.

قيمة الحياة

أما صفاء الخضري من حلب (20 عامًا)، وهي التي تتابع دورات في اللغة الانجليزية والكمبيوتر، فتروي تجربتها مع مؤسسة عامل - مركز حارة حريك باختصار جملة واحدة: هنا فهمت كم حياتي مهمة. وتروي كيف عدل إخوانها عن فكرة تزويجها بالقوة منذ ثلاث سنوات، بعد التحاقهم بدورات تأهيل مهني في مؤسسة عامل.

وتؤكد أنها اليوم أكثر ثقة واعتدادًا بنفسها، وأن حلمها يتجسد في اكتساب العلوم والمهارات لنقلها لأطفال سوريا الذينيبقى معظمهم خارج المدرسة، وتؤكد أنها ستقوم بتشكيل لجنة من نساء الحي الذي تقطن فيه بحلب يعد عودتها، هدفها رعاية الأطفال وتعليمهم ونشر ثقافة احترام البيئة وتقبل الآخر.

وتقول: اليوم صرت أعرف أن حياة واحدة تستطيع أن تنقذ مئات الحيوات.

أما ندى بركات التي عاشت صراعاً متعباً مع عائلتها، وخصوصاً إخوانها الشبان، لحضور دورات مؤسسة عامل والمشاركة بنشاطاتها، استطاعت لاحقاً أن تقنعهم بالعدول عن رأيهم واحترام رغبتها، بعد أن استطاعت فتح صالون التجميل المتواضع الخاص بها بتدريب ودعم من مؤسسة عامل، والذي أصبح يدر أموالاً على العائلة، وهي من التجارب الكثيرة التي استدل فريق عامل عبرها على أهمية الدور الاقتصادي الذي تلعبه المرأة في الأسرة وتأثيره على حقوقها ودورها الاجتماعي.

حارة حريك - لجنة الخدمة الاجتماعية

نظراً لضخامة مركز حارة حريك التابع لمؤسسة عامل وتعدد برامجه وخدماته، فقد تم تشكيل أكثر من لجنة مختصة فيه، ومن بينها لجنة الخدمة الاجتماعية، وهي مؤلفة من عشرين شابة وشابًا سوريين بالغالب، وبينهم لبنانيون وعراقيون، يتابعون دورات تأهيلية وصفوف تمكين وتعليم ضمن المركز، في الدوامين الصباحي والمسائي.

تم استنباط الفكرة وتأسيس هذه اللجنة بطلب من المستفيدين أنفسهم بعد متابعتهم لجلسات توعية، وتنمية حس المواطنة والمسئولية الاجتماعية، عبر الكثير من النشاطات والجلسات، التي يستفيد منها سنوياً في المركز لا يقل عن 10 آلاف شخص.

ونتيجة لمواظبة عامل على زرع وتعزيز مفهوم المبادرة والمسئولية عند هؤلاء الشابات والشباب، تطورت حماسة جزء منهم ومهاراته، ليصبح لاحقًا متطوعًا ومدربًا في

مؤسسة عامل، وللاستفادة أكثر من هذه المهارات والأفكار التي طورها هؤلاء المستفيدون في المركز، تم فرز جزء منهم للتطوع في المساعدة لتعليم 150 تلميذًا ضمن مشروع "باريناج" أو الكفالة الممول من عدد من العائلات الفرنسية.

وبالفعل يقوم عدد من هؤلاء الشابات بمعدل 3 أيام في الأسبوع، في مساعدة تلاميذ مشروع باريناج في فهم دروسهم وحل فروضهم المدرسية، للتسريع من عملية دمج هؤلاء التلاميذ في المناهج اللبنانية، ومن هنا استمدت فكرة أخرى.

طالبت لجنة المتطوعين بتخصيص لجنة أخرى للخدمة الاجتماعية، تقوم بتحديد يوم من كل أسبوع، تدعو فيه أبناء المنطقة المضيفة والنازحين للاستفادة من الخدمات الاجتماعية التي تتضمن التالي:

- تخصيص يوم (قص شعر وتلوين مجاني) لجميع نساء المنطقة (وذلك بعد أن تعلمت الشابات هذه المهنة مجانياً داخل مركز عامل).

- تخصيص يوم في الأسبوع لتعليم الأهالي على إعادة تدوير الورق والبلاستيك من قبل اللجنة.

- تخصيص يوم تقوم فيه اللجنة بزيارة بعض منازل المناطق القريبة المحتاجة وتقديم العون في أمر تحتاجه العائلة.

- تخصيص يوم للترفيه عن المسنين يقوم فيه أعضاء اللجنة بزيارة المسنين وإعطائهم الهدايا.

هذا بالإضافة إلى أفكار جديدة ومنوعة يتم استنباطها كل شهر نتيجة الاجتماعات التي تقوم بها هذه اللجنة بشكل دوري، تحت إشراف المؤسسة وإدارتها.

كما يتم التركيز على تعزيز فهم هذه اللجنة للقضايا الاجتماعية ومن ضمنها قضايا المرأة، ومساعدة الشابات على اتخاذ مبادرات وتطوير حس القيادة، واليوم تم عبر هذه اللجنة، تخريج وتأهيل 70 فتاة سورية وفلسطينية (خلال عام 2016) جاهزة ومتحمسة لأخذ مبادرات في مجتمعها والإمساك بزمام الأمور بعد أن اختبرت معنى المسئولية الاجتماعية والتعاون والتضامن بشكل عملي، فيما لدينا بالمقابل 70 شابًا سوريًّا مؤمنًا بحقوق المرأة ودورها، من دون خلق أي صراع بينهما أو التطرق لنقاش قضايا المرأة بطرق صدامية وحساسة، عبر الاعتماد فقط على التجربة الحسية المدروسة.

لجنة المصالحة الاجتماعية - الشياح

تجربة مركز الشياح التابع لمؤسسة عامل، والذي تتركز برامجه في التأهيل والعمل مع الفئات الشابة.

في العام 2013 وبعد زيادة تدفق اللاجئين إلى لبنان، وتوسيع عامل نطاق برامجها، استقبل هذا المركز عدداً كبيراً من الشباب والشابات، من سوريا، وتم تأطيرهم ضمن برامج تأهيل وتعزيز المهارات الحياتية، الذي يتضمن إلى جانب المواد التعليمية، تأهيل مهني واجتماعي. ولكن نتيجة للحساسيات في المجتمع اللبناني، ورواسب الحرب الأهلية وتوابعها، امتعض أهالي الحي من وجود الكثير من الشابات والشبان السوريين، يرتادون المركز، وبدأ أهالي المبنى بالشكوى، فاجتمع فريق عامل مع اللاجئين وقاموا بتشكيل لجنة شبابية لمعالجة المسألة بإشراف رئيسة المركز.

بالفعل تشكلت اللجنة من عدد من الشابات والشبان وبدوا بالتخطيط واقتراح نشاطات تساعد على زرع بذور الوئام والتقبل في المبنى والحي، وكان أول نشاط قاموا به هو تنظيف المبنى وطلاء المدخل وتزيينه، على نفقة مركز عامل.وشارك أعضاء اللجنة بعملية التنظيف والطلاء والتزيين بأنفسهم، مما انعكس إيجابًا على جو المبنى وأصبح الناس أقل تحفظاً اتجاه هؤلاء النازحين.

مع الوقت انتظم عمل اللجنة وأصبحت دائمة، ونشاطاتها مستمرة في أكثر من اتجاه، ومن بينها تفقد فقراء الحي أسبوعياً أطعمة مصنوعة يدوياً وملابس جمعت في مركز عامل، وتوزيعها عليهم لاحقاً. بادرت الشابات ضمن اللجنة، واللواتي يتعلمن صنع الحلي وعلاقات المفاتيح بصناعة سلة هدايا، وتوزيع عينات عنها لـ 36 منزلاً في الحي، في عيد الميلاد، ليفاجئن بعد أيام بأكياس من المواد الأولية والخرز كتبرعات من أهالي المنطقة للمؤسسة.

أما استراتيجية عمل اللجنة داخل المؤسسة، فقام فريق عامل بتنظيم جلسات مصارحة وعلاج درامي، تجمع شباناً وشابات من فلسطين ولبنان وسوريا والعراق سويا، تحت عنوان فهم الآخر كطريق لبناء السلام، استفاد من هذا النشاط حوالي 277 شاباً وشابة.

ولاحقاً نما التعاون بين أهالي المنطقة ومركز عامل، في العديد من المناسبات، وتم امتصاص نسبة كبيرة من الحقد والغضب وتحويلها إلى طاقة إيجابية، وقد قام كل عضو بهذه اللجنة بكتابة برنامج حول قضية معينة، سيقوم بتنفيذه عند العودة لبلده في منطقته، بهدف الحصول على تجربة مماثلة. والجدير بالذكر أن معظم أعضاء اللجنة هم من الفتيات بشكل دائم.

يتبدل معظم أعضاء اللجان كل فترة، بهدف إدماج وتأقلم الوافدات الجدد، للالتحاق بمراكز عامل، وقد خرجت المؤسسة خلال عامي 2014-2015، 5000 طالب وطالبة، ضمن برامجها، وهي تستعد لتخريج عدد مماثل في بداية العام 2017. وقد حظي هذا المركز برعاية خاصة من سفيرة الاتحاد الأوروبي في بيروت السيدة انجلينا ايخورست التي زارته مرتين خلال 2014-2015، حيث إن معظم البرامج في المركز هي بالتعاون مع مفوضية الاتحاد الأوروبي في لبنان.

لجنة عرسال

كان لمؤسسة عامل تجربة فريدة في منطقة عرسال اللبنانية المحاذية للحدود مع سوريا، والتي تعتبر أحد معاقل التنظيمات الإرهابية. وعلى غرار جميع المراكز الأخرى، قامت اللجنة المشتركة بين أبناء المجتمع المضيف والنازحين، بتنفيذ أنشطة تهدف إلى تعزيز العلاقة بين أبناء المجتمع المضيف واللاجئين وتحويل الشحنة السلبية إلى فرصة للتعاون والعمل سوياً من أجل التوصل إلى نتائج أفضل.

بالفعل، قامت اللجنة المتشكلة من عدد من السيدات من الجانبين، بالمواظبة على تقريب وجهات النظر والعمل ضمن القيم الإنسانية التي تزرعها مؤسسة عامل، عبر نشاطات مشتركة، تتضمن التعاون في صناعة وتوزيع الطعام، وجمع الملابس، والاعتناء بالأطفال، والاهتمام بالعائلات الأكثر فقراً.

أما مؤسسة عامل فاعتمدت على جلسات التوعية والتأهيل النفسي - الاجتماعي والاسناد الصحي - التعليمي للنازحين والنازحات وأبناء المنطقة المضيفة، حتى وصل عدد خدمات المركز لحوالي 60 ألف خدمة بين عامي 2015-2016.

ونتيجة لعمل اللجنة الأهلية، قام أهالي المنطقة، في خضم الاشتباكات العسكرية التي جرت في العام الماضي في المنطقة، باتخاذ خطوة شجاعة وملؤها الأمل بمستقبل أفضل، حيث قاموا بالتصدي لعناصر تنظيم داعش الإرهابي الذي أراد أن يحرق مركز عامل في عرسال واحتلاله، ولكن الأهالي تحولوا إلى دروع بشرية ورفضوا رفضًا قاطعًا المس بمؤسسة عامل التي تعمل من أجل جميع الناس، حتى الفئات الشعبية التي تعتبر سياسيًّا موالية للتنظيمات الجهادية، كان رأيها موحدًا إلى جانب عامل، ككل أبناء المنطقة. ونتيجة لهذه الحادثة، قامت اللجنة النسائية لاحقًا بالطلب إلى المؤسسة لإقامة جلسات توعية لبناء ثقافة السلام، ونبذ العنف.

الخلاصات

لاحظت مؤسسة عامل خلال تجربتها الطويلة في العمل مع النساء، أن التمكين الاقتصادي والاجتماعي هو الباب الفعال الوحيد، لفرض ومناصرة حقوقها السياسية والاجتماعية بطرق سريعة وغير مباشرة، خصوصًا في حالة العالم العربي. ففي ظل الفقر والتهميش، تعد مساهمة النساء في تحسين دخل الأسرة والحفاظ على كرامتها، بابًا واسعًا للولوج منه إلى مرحلة متقدمة في دور النساء بالأسرة وبالمجتمع، بعد أن رصدت مئات حالات التقدم والتحسن من هذه الجهة، وفي السلوك تجاه المرأة، ضمن الأسر والبيئات التي حصلت فيها المرأة على دعم وتمكين اقتصادي، بينما لم تنجح المحاضرات المباشرة حول تغيير وضع المرأة في الوصول إلى نتيجة إلا من 5% من الرجال الذين حضروا المحاضرات أو النشاطات.

الأمر الذي أدى بعامل إلى ابتكار أدوات غير مباشرة، مداخلها البيئة الصحة والاقتصاد والتعليم، ولكنها تؤدي حكماً إلى اكتساب الحقوق السياسية والمكانة الاجتماعية الطبيعية للمرأة حتى ضمن البيئات المحافظة والمتشددة.

70% من النساء المستفيدات من مركز عامل الصحي - التنموي في حارة حريك لاقين رفضاً بداية الأمر للالتحاق بالمركز، ومن ثم تلقين دعماً من ذكور العائلة بعد 3 أشهر من العمل التوعوي والتنموي والتمكيني مع الرجال والشباب.

قد تبدو هذه الخطة في تمكين النساء السوريات المهجرات التي تنفذها مؤسسة عامل محدودة المدى والاستيعاب والنتائج مقارنة بحجم المشكلة الضخم. إذ لاتدعي عامل بأنها تعالج مشكلة لجوء 600 ألف امرأة مما يتطلب خططاً تتجاوز طاقة لبنان ذاته وصولاً إلى المشاركة العربية والدولية الشاملة. إنما تقدم عامل تجربة شراكة وادماج وتمكين قابلة لأن تعمم على صعيد برامج تدخل منظمات العمل المدني، انطلاقاً من فلسفة الإيمان بالإنسان بصرف النظر عن نوعه الاجتماعي والإيمان بقدرات هذا الإنسان على البناء والنماء وأخذ زمام مصيره وصناعة مستقبله بيده.

إن اطلاق طاقات المهجرات السوريات الحية وتوظيفها في مبادرات خلاقة لمواجهة التحديات الكيانية ذات الآثار الكارثية، ونجاحها في تحقيق نتائج ولو متواضعة على صعيد المبادرة إلى الفعل تؤدي إلى تغيير دلالة كارثة التهجير وما سبقه ورافقه من دمار غير مسبوق وفقدان لمجال الحياة الأصلي في سوريا. إذ تتحول دلالة المرأة السورية المهجرة من حالة العجز والوقوع في وضعية ضحية العدوان، والفاقدة للسيطرة على وضعها ومصيرها إلى حالة الاحساس بالقدرة على الفعل والمجابهة، والإحساس بإمكانية التغيير ورفض الاستسلام الذي لا يقل كارثية في نتائجه عن

كارثة الدمار والتهجير ذاتها. إنها تمد الإنسان بمشاعر المنعة الذاتية وتحويل المحنة إلى فرصة التي تغير النظرة إلى الذات وإلى الكارثة، مما يوفر القدرة على الصمود وإلى التحول من روحية الهزيمة إلى روحية التفكير الإيجابي الذي يشكل أساس كل بناء ونماء. وهو ما يفتح السبيل أمام الرؤى المستقبلية من موقع المرونة الاستيعابية. فالكارثة ليست كارثة، والمحنة ليست محنة إلا بمقدار شعور الإنسان بالهزيمة إزائهما. والخلاص وظفر الحياة على الموت هما رهن بمدى الشعور بالقدرة على المجابهة. ذلك ما تعلمنا إياه تجارب الشعوب. وذلك هو الاقتدار الإنساني.

مراجع عربية

- حجازي، مصطفى (2005). الإنسان المهدور. بيروت، المركز الثقافي العربي.

- آن هوب وسالي تيميل (2010). أفكار للعمل مع الناس: دليل التدريب من أجل التحول. بيروت: ورشة الموارد العربية.

- حجازي، مصطفى (2012). نحو سياسة اجتماعية خليجية للأسرة: من الرعاية إلى التمكين. المنامة: المكتب التنفيذ لمجلس وزراء العمل والشئون الاجتماعية.

- حجازي، مصطفى (2012) إطلاق طاقات الحياة: قراءات في علم النفس الإيجابي. بيروت: دار التنوير.

- مهنا، كامل وحجازي، مصطفى (2014). دور منظمات المجتمع المدني في مواجهة المخاطر التي تتعرض لها الأسرة في لبنان: تجربة عامل نموذجًا. بيروت: دار الفارابي.

- حجازي، مصطفى (2015). مراكز الإرشاد الأسري في دول مجلس التعاون: رؤية مستقبلية. المنامة: المكتب التنفيذي لمجلس وزراء العمل والشئون الاجتماعية.

- قنديل، أماني (2008). الشراكة الاجتماعية ومسئولية الجمعيات الأهلية في التنمية بدول مجلس التعاون. المنامة: المكتب التنفيذي لمجلس وزراء العمل والشئون الاجتماعية.

- مهنا، كامل (2011-2016) تقارير عن فلسفة عامل في التنمية وبيانات عن الإنجازات في العمل مع المرأة ومع السوريات المهجرات.

مراجع أجنبية

- Carr, Alan (2004). Positive psychology: The Science of Happiness and Human Strengths. New York: Brunner – Routledge.

- Larsen Jeff and others (2003). Turning Adversity to Advantage: On the Vertues of the Coactivation of Positive and Negatives Emotions. In a Psychology of Human Strengths Fundamental Questions and Future Directions for a Positive Psychology. Washington, DC: American Psychological Association.

- Maddux, James, Self-efficacy: The Power of Believing You Can. in: Handlook of Positive Psychology. New York: Oxford University Press.

- NiroSivanathawaand others (2004). Leading well: transformational leadership and well-being in: positive psychology in practice. New Jersey: Wiley and Sons.

- YATES and Masten (2004). Fostering the Future: Resilience Theory and the practice of positive psychology in: positive psychology in practice: New Jersey: John Wiley and Sons.

- Yazbeck, Aida (1998). Expérience d'animationcommunautaire Rural, in: Travail social et Société. Beirut : USJ

25 شارع رمسيس، الكوربة، مصر الجديدة، القاهرة
جمهورية مصر العربية
25 Ramses St., Korba, Heliopolis, Cairo, Egypt
Tel.: (+202)24183301/101
Fax: (+202)24183110
@: info@arabwomenorg.net
www.arabwomenorg.org